التسامح في الإسلام

أ.طالب حفيظة
كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
جامعة وهران

بسم الله الرحمن الرحيم

"قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾" البقرة 136

الإسلام هو المنهج أو النظام الوحيد في العالم ، الذي مصدره كلمات الله وحدها، غير محرفة ولا مبدلة ولا مخلوطة بأوهام البشر وأغلاطهم وانحرافاتهم.

والأنظمة التي نراها في العالم إلى اليوم ثلاثة، فيما عدا الإسلام.

1-منهج بشري مدني محض، مصدره التفكير العقلي، أو الفلسفي لبشر فرد أو مجموعة من الأفراد كالشيوعية.

2-منهج ديني بشري مثل الديانة البوذية القائمة في الصين واليابان والهند والتي لا يعرف لها أصل إلهي أو كتاب سماوي.

3-منهج ديني محرف، فهو وإن كان إلهيا في أصله عملت فيه يد التحريف والتبديل فأدخلت فيه ما ليس منه، وحذفت منه ما هو فيه فاختلط فيه كلام الله بكلام البشر وذلك كاليهودية والنصرانية.

أما الإسلام فهو المنهج الفذ الذي سلم مصدره من تدخل البشر وذلك لأن الله تولى حفظ كتابه بنفسه أعلن ذلك لنبيه ولأمته(1) فقال:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝) الحجر 9.

فالإسلام من جهة المضمون حافل بالقيم والتجارب والقواعد الإنسانية ومن جهة الماضي يستند إلى حقبة مديدة من الزمن كان هو وحده فيها، مدار الحياة ومحور التعايش وأساس التعامل بين القسم الأكبر من سكان المعمورة وهو من جهة المقارنة بينه وبين المبادئ النظرية الأخرى، يتميز بميزات فطرية تجعل منه مبدأ ذا اللون الخاص الجدير بالحياة.

وهو من جهة المنهج عالمي الدعوة، إنساني المتجه.(2)

فرسالة الإسلام كانت ولا تزال رسالة الهداية الإلهية للبشرية جمعاء هدفها نزع الشرور والمفاسد والقضاء على الانحراف والدعوة إلى الخير بأوسع معانيه وإلى الإحسان بأعم وسائلها، فالإسلام يخاطب العقل والقلب بلا إكراه بل بالحكمة والموعظة الحسنة والاقتناع.(3)

ذلك أنّ آيات القرآن الكريم جميعها ناطقة صراحة بأنه لا إكراه في الدين وانّ الرسول صلى الله عليه وسلم غير مكلف بشيء سوى التبليغ المبين والتذكير بآيات الذكر الحكيم.

قال تعالى:(فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾) الغاشية 21-22

وهل كان للرسول عليه الصلاة والسلام أن يقوم في قومه مقام الجبارين فيقتلهم أو يحرقهم لمجرد إعراضهم عن دينه.(4) قال تعالى: (نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾).ق 45.

ما كان للعقائد أن تتكون بالإرغام والقهر ولا للإسلام الذي هو دين البحث والنظر أن يقول بقتل من لا يدينون به ممن قصرت عقولهم عن إدراكه أو تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن صدها ومدافعتها، فالإسلام دين عزة وكرامة، دين رحمة وشفقة.(5)

فمن عظمة هذا الدين سماحته حيث لا يأمر أهله إلاّ بالإحسان لمخالفيه، فالإسلام بعد تقريره لوحدة الدين، يقرر وحدة الجنس والنسب فالناس إذا لم تسعهم إخوة الدين وهي أرحب من الكون وسعتهم أخوة الأصل الواحد إذ هم انعطفوا إلى الأصل والدم. قال عليه الصلاة والسلام:﴿ كلكم لآدم وآدم من تراب"

وقال تعالى:(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾) النساء 1

ومن حق هذه الأخوة عليهم أن يتعارفوا وأن يتراحموا وأن يتعاونوا فيما بينهم على ما فيه سعادتهم وأمنهم وسلامتهم.(6)

وعن السلام نادى الإسلام ومنه اشتق اسم الإسلام فغنّ رسالة الإسلام في بناء المجتمع هي رسالة سلام تتمثل في الرحمة والتبشير والتخفيف والتيسير والعقيدة الإسلامية تنادي بالتعايش السلمي وتعتبر الاعتداء على الشعب اعتداء على الشعوب جميعا وتهديدا للسلام الذي يحرص عليه الإسلام.(7)

فلابد أن يطبق مبدأ عظيم للحرص على السلام والتعايش الإيجابي بين الناس، إنه مبدأ التسامح الذي هو فضيلة أخلاقية وضرورة مجتمعية وسبيل لضبط الاختلافات والعلم اليوم في أشد الحاجة إليه.

تعريف التسامح:

أ-لغة: السماح والسماحة: الجود.(8)

والشيخ الطاهر بن عاشور يقول في مقاصده:" أن السماحة هي سهولة المعاملة في اعتدال فهي وسط بين التضييق والتساهل وهي راجعة إلى معنى الاعتدال والعدل والتوسط.

والتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط هو منبع الكمالات وقد قال الله تعالى في وصف هذه الأمة:(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن

كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾)البقرة143

فالسماحة هي السهولة المحمودة فيما يظن الناس التشديد فيه ومعنى كونها محمودة أنها لا تفضي إلى ضرر أو فساد وفي حديث الصحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" رحم الله رجلا سمحا إذا باع سمحا إذا اشترى، سمحا إذا اقتضى"

واستقراء الشريعة دلّ على أن السماحة واليسر من مقاصد الدين.

وقد ظهر للسماحة أثر عظيم في انتشار الشريعة وطول دوامها، فعلم أن اليسر من الفطرة لأن في فطرة الناس حب الرفق.(9)

والتسامح بالمعنى الحديث يدل على قبول اختلاف الآخرين سواء في الدين أم العرف أم السياسة أو عدم منع الآخرين من أن يكونوا آخرين أو إكراههم على التخلي عن آخريتهم.

التسامح في القرآن الكريم:

إنّ انغلاق المرء على عقيدته وتصوره أن الإيمان الديني ملازم للتعصب واعتقاده أنه على الحق وما عداه باطل واعتبار الآخرين جميعا خصومه وأعداءه فيتوجس الشر منهم ويضمر السوء لهم فتنشأ العداوة والبغضاء بين الناس وكثيرا ما تفضي هذه إلى حروب دموية بين الطوائف والشعوب المختلفة دينيا.

غير أن هذا المرء إذا تطلع إلى الإسلام حقيقة وجد أنه يعترف بوجود الآخر المخالف فردا كان أم جماعة وانّ التسامح مبدأ من مبادئ التعايش السلمي و اللاعنف وله قيمة كبرى في الإسلام فهو ليس بالتنازل أو التساهل أو الحياد اتجاه الغير بل هو الاعتراف بالآخر.ومصادر التسامح لدى المسلم كثيرة وأصلية، منها الكتاب والسنة وكذا سيرة بعض العلماء الكبار.

من الكتاب:

أسس القرآن الكريم أصول التسامح ورسخها في سوره المكية والمدنية بأساليبه البيانية التي تخاطب الكيان الإنساني فتقنع العقل وتطمئن القلب منها:

1- التعددية أو اختلاف الناس سنة الله في خلقه:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ هود 118-119

وقال تعالى:﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ يوسف 103

وعلى هذا علم المسلمون أنه يتوجب عليهم أن لا يحقدوا ويضطهدوا من يخالفهم في الدين لأنّ هذه إرادة الله التي خلقت الناس على هذا الاختلاف.(10)

وأنها ظاهرة طبيعية وسنة كونية كما يؤمن المسلم بوحدانية الخالق يؤمن بتعددية الخلق في مجالات شتى.

والإخلاف بين الناس في أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم لا ينبغي أن يكون مبررا للنزاع والشقاق بين الأمم والشعوب بل الأحرى أن يكون دافعا إلى التعارف والتعاون من اجل تحقيق ما يصبو إليه من تبادل المنافع وإثراء الحياة والنهوض بها. قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣) الحجرات 13

فالإسلام ينظر إلى هذه البشرية كأسرة واحدة وكيان واحد ينتمي من جهة الخلق إلى الإله الواحد ومن جهة النسب إلى أب واحد وهذا ما نادى به القرآن الناس

2- لا إكراه في الدين وحرية المعتقد:

رسخ الإسلام من أجل التسامح أن الديانات السماوية تستقي من معين واحد ومن دواعي فخر الدعوة الإسلامية-كدين-أنها تمتاز بعدالة سمحة ليس لها نظير في ترك الحرية لمن خالفها في طريقة عبادة الله.(11)

قال تعالى: ۞ (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ١٣) الشورى13

لا تفاضل من حيث الرسالة ومن حيث الإيمان كما أنّ أخوة الأنبياء تستدعي هذا التسامح، فقال تعالى: (قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ

إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ البقرة136

وبالتالي نرى الإسلام يخاطب متبعيه بأنّ لا يرغموا أحدا على ترك دينه واعتناق الإسلام وفي هذا يقول الله تعالى: (لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾) البقرة256

فهو لا يكره أحدا على عقيدته يعرض فكرته في سماحة ويسر قال تعالى: (وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴿٢٩﴾)الكهف29

ويقول مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم: (وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾) يونس99

وفي قوله أيضا: (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾)الأنعام35

وأيضا: (فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾)آل عمران20

ولم يقل فان تولوا فقاتلهم، ثم تأمل كيف يقنع الإسلام بالكلمة في ساحة الوغى وميدان الحرب: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ النساء94

فالإسلام لا يدع سببا لإقامة المودة بين البشر إلاّ سلكه ولا يترك بابا من أبواب الخير إلاّ سار فيه يمد يد السلم لمن سالمه ويبذل النصح لمن خاصمه (12).

إنه أعظم مبدأ تأميني في الإسلام لحرية العقيدة ولم يأت هذا الأمان من قائد في الحرب أو خليفة في الحكم، بل جاء من رب عظيم في قرآن كريم فله قداسة القرآن وجلال التنزيل(13)

فالدعوة إلى الإسلام لا تكون بالإكراه بل بالمجادلة التي أساسها العقل والمنطق وعمادها الإقناع ولكن بالطريقة التي هي أحسن.

قال تعالى: (۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾) العنكبوت 46

وقال تعالى: (يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾) آل عمران65

فهذه الآية الكريمة توجه الدعوة إلى الحوار بين الأديان واضحة صريحة فليس هناك سبيل إلى حل المشكلات إلاّ من خلال الحوار وعدم التعصب وهو ما يسمى بالتسامح الفكري.

ومن التسامح أن يرسم الله كيفية معاملة المسلمين للذين يخالفونهم في دينهم فيقول سبحانه وتعالى: (لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾) الممتحنة8-9

ففي هاتين الآيتين يأمر الله المسلمين معاملة من يخالفونهم في دينهم بالعدل ولم يكتف به بل تجاوز إلى التوصية بالبر بهم والبر فوق العدل فهو لا يأتي إلاّ من العطف والحنو وإرادة الخير واستثنى الله الذين اضطهدوا المسلمين.

فالإسلام يرجح كفة الصلح والمودة على العداوة والبغضاء قال تعالى: (۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧) الممتحنة7

ومن التسامح في الإسلام إباحته طعام أهل الكتاب وتحليله لذبائحهم وإباحته للمسلم أن يتزوج من نسائهم قال تعالى: (ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥)

المائدة 5فالمؤاكلة والمصاهرة تدعو للمحبة وحسن المعاشرة والإخلاص في المعاملة.

ومن التسامح أيضا تسميتهم بأهل الذمة أي في ذمة الله وعهده ورعايته (14)

ومن التسامح العفو وهو أن يخطئ معك إنسان وتكون قادرا على معاقبته ومؤاخذته ولكنك تعرض وتصفح لذلك قيل لا يظهر العفو إلاّ مع الاقتدار.

قال تعالى:(وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾) الشورى 40

وقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾) التغابن 14

وفي سورة النساء: (إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾) النساء 149

والقرآن الكريم يوجه الناس إلى الترقي في درجات الصفح والعفو والغفران والتسامح مع الناس فيقول في سورة آل عمران: (۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾) آل عمران 133

وقال تعالى: (فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾) الزخرف 89

مع العلم أن الصفح غير العفو أبلغ من العفو وأعلى منه درجة فقد يعفو الإنسان ولا يصفح لذلك جاء في القرآن الكريم: (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾) البقرة 109

ويقول القرطبي: العفو ترك المؤاخذة بالذنب والصفح و إزالة أثره من النفس (15)

التسامح في السنة النبوية:

أما التسامح من وجهة نظر السنة النبوية فقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى لمعاملة أهل الكتاب فقد روي أنه كان يحضر ولائمهم ويشيع جنائزهم ويعود مرضاهم ويزورهم ويكرمهم حتى روي انه لما زاره وفد نصارى نجران فرش لهم عباءته وأمرهم بالجلوس عليها.

وروي أنه كان يقترض من أهل الكتاب نقودا ويرهنهم أمتعته حتى انه توفي ودرعه مرهونة عند بعض يهود المدينة في دين عليه ولم يخلص درعه إلاّ خلفاؤه بعد وفاته،كان يفعل ذلك لا عجزا من أصحابه عن إقراضه فكان منهم الأغنياء وهم المستعدون لأن يضحوا بأنفسهم وأموالهم في مرضاة نبيهم بل كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك تعليما وإرشادا لأمته.

ولا يوجد أعظم مثال من إعلانه صلى الله عليه وسلم العفو العام على المشركين يوم فتح مكة بالرغم من أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته.

بالرغم من قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم إلاّ أنّ العفو جاء من نبي الرحمة حيث قال للمشركين وهم مجتمعون قرب الكعبة، ينتظرون حكم الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم، فقال:"أما تظنون أني فاعل بكم؟فقالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم، فقال:" لا تثريت عليكم اليوم يغفر الله لكم" وفي رواية:" اذهبوا فأنتم الطلقاء" (16)

وكذلك استقبل الرسول صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران وسمح لهم بإقامة الصلاة في مسجده وكذا إكرام النبي صلى الله عليه وسلم لوفد نصارى الحبشة وقال:"إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، فأحب أن أكرمهم بنفسي".وهناك شواهد كثيرة لا يسعنا ذكرها في هذا المقال فكتب التاريخ الإسلامي والسير زاخرة بمواقف السلام التي دعا إليها الإسلام منذ فجره.

فقد أعطى المسلمون العهد لأهل الشام ومصر يظلوا على دينهم وكفلوا لهم حرية عبادتهم وحرمة معابدهم ومن منهم في الإسلام كان ذلك منه بمحض الرغبة والاقتناع.

كما عامل المشركين على أساس قواعد المروءة والنخوة والشرف، مصداقا لقوله تعالى:(وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾)التوبة6 (17).

أما عن أصحاب الذمة فإنّ الإسلام أوجب لهم من الحقوق ما أوجب للمسلمين وجعل عليهم ما عليهم.

وإذا كانت الدولة الإسلامية قد فرضت عليهم الجزية فإنه أسقط عنهم واجب حمل السلاح وجعل في عنق الدولة واجب الدفاع عنهم والمقاتلة في سبيل

أرضهم وذراريهم، مع العلم أنّ هذه الجزية أسقطت عن الشيوخ والصبيان والنساء، إنما يدفعها القادرون من الرجال على حمل السلاح،وحسبنا أنّ العلماء متفقون على أنّ الجزية "لا تؤخذ من المسكين الذي يتصدق عليه ولا من مقعد ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل"وغن عجز المسلمون عن الدفاع عن أهل الذمة ردوا عليهم ما أخذوه منهم.وإن مات أحد من الذميين وعليه شيء من الجزية فلا يؤخذ من تركته ولا يكلف ورثته بأدائه. فما شهدت الإنسانية في حياة الفاتحين مثل هذا التسامح في أخذ الجزية. (18)

كما أباح لهم التمتع بما هو حلال عندهم ومكنهم من أن يشعروا بوجودهم العقائدي تمكينا واضحا إذ جعل لهم الحرية في التخلف عن دعوة القضاء إن صادفت هذه الدعوة يوما من أيام أعيادهم.

كما أباح الإسلام لأصحاب الديانات الأخرى أن يبنوا بيعهم وكنائسهم وأن يقيموا شعائرهم كما يشاءون في ديارهم دونما معارضة(19).

وذكر القرافي في الفروق:" إنّ عقد الذمة يوجب لهم حقوق علينا لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا وفي ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام.

فمن إعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض احدهم أو أي نوع من أنواع الدية أو أعان على ذلك فقد ضيّع ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة دين الإسلام"(20)

وقال الإمام ابن حزم-رحمه الله- في مراتب الإجماع:"أنّ من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقاتلهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك ، فإن تسليمه إهمال لعقد الذمة"(21).

يقول ول ديورانت: لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصائبون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا في البلاد المسيحية في هذه الأيام.فلقد كانوا أحرارا في ممارسة شعائر دينهم واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم.

ويقول برنارد لويس: لقد نجح الإسلام، حيث فشلت المسيحية في مزج الإيمان العميق بالتسامح الديني الذي لم يشمل فقط غير المسلمين من الأديان الأخرى بل شمل هذا التسامح حتى الهراقطة والكفار. "(22)

وواصل الصحابة والتابعون معاملة أهل الكتاب بالتسامح وساروا على سنة النبي صلى الله عليه وسلم فلم يكن عمرو بن العاص في مصر أقل سخاء من عمر بن الخطاب في القدس حين عامل النصارى برفق وإنصاف فهو قد شمل الديانة النصرانية بعطفه وحمايته، بل إنّ من مظاهر التسامح الديني أن كانت المساجد تجاور الكنائس.ولقد بلغ شأو التسامح وهو في الوقت ذاته دليل قوة وسيطرة وعدل أن رؤساء الديانات من أهل الكتاب يعينهم الخليفة أو أمير المؤمنين ولم يكن هذا الاعتماد تعيينا دون رأيهم، أو جبرا عنهم بل كان يتم بعد اختيارهم لمن يرغبونه رئيسا ومرجعا دينيا لهم. إنها قمة التسامح. (23)

وبعد الصحابة وتابعيهم نجد أمثلة عن علماء كبار نهجوا نفس المنهج أمثال ابن تيمية رحمه الله الذي تعرض لأذى الحساد لكنه كان يقابل ذلك بالإحسان والرحمة فقد كانت له نفسية تسامحية عجيبة وعظيمة.

الخاتمة

إنّ الإسلام بمنهجه الذي سار عليه في تربية الفرد والمجتمع في نشر السلام والمعاملة بالحسنى والتسامح لا تضاهيه أي ديانة أو فكر أو نظام، ذلك لأنه منهج رباني يستحيل أن يتساوى مع فكر الإنسان العاجز القاصر والإنسانية شقيت كثيرا قبل أن ترى هذا المنهج الرباني.

فلابد أن نطرح التعصب الذي يهدد المجتمعات بالتمزق و التعادي.

ولابد أن تقوم العلاقات على الرحمة والتعاون فلا يمنع اختلاف العقيدة من التقاء على صلة الرحم فدعوة الإسلام تقوم على السلم والمسالمة.

والتسامح اليوم ليس فضيلة فحسب بل هو ضرورة اجتماعية، ثقافية وسياسية والتسامح يتمثل في التشاور والتآزر والتراحم والتعارف والعفو والصفح فلابد من أن يلتزم المسلم بذلك لحماية حقوقه وحقوق غيره.

ولابد من أن تعتني وسائل الإعلام وكذا المؤسسات والمعاهد بالتثقيف والتوعية بهذه القيمة، قيمة التسامح وتعميق متطلباته في الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي.

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الروم 4

الهوامش:

1-يوسف القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام،الجزائر، شركة الشهاب، ص35

2- مصطفى الرافعي، الإسلام نظام إنساني، ص3

3-المرجع نفسه ص31

4-عبد العزيز جاويش، الإسلام دين الفطرة، ص179

5-المرجع نفسه ص180

6-محمد الرّاوي، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية من الشرق والغرب ص16

7-محمد ظفر الله خان، الإسلام والإنسان المعاصر، ص153

8-ابن منظور، لسان العرب مادة السماحة

9-الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص61

10- عفيف عبد الفتاح طبارة، روح الدين الإسلامي، ص272

11-مصطفى الرافعي، الإسلام نظام إنساني، ص77

12- محمد الراوي، الدعوة الإسلامية، ص430

13-أحمد عبد الجواد الدومي، الإسلام منهاج وسلوك، ص147

14-عفيف طبارة، روح الدين الإسلامي، ص274

15-أحمد الشرباصي، أخلاق القرآن، ج1ص53

16-محمد صلابي، السيرة النبوية، ج2ص507

18-مصطفى الرافعي، الإسلام نظام إنساني، ص186

19-عبد الفتاح عاشور، منهج القرآن، ص552

20- مصطفى الرافعي، الإسلام نظام إنساني، ص199

21-القرافي، الفروق، ص85

22- ابن حزم، مراتب الإجماع، ص40

23- عجيل جاسم النمشي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية كلمة العدد ص16،17.